أمثلة من الترجمة

Gero von Randow
Wenn das Volk sich erhebt. Schönheit und Schrecken der Revolution

Kiepenheuer & Witsch Verlag, Köln 2017
ISBN 978-3-462-04876-6

صفحة 9-13 & 46-49 & 56-62 & 254-260

جيرو فون راندو
عندما يثور الشعب
جمال الثورة ورعبها

تأليف: جيرو فون راندو
ترجمة: سمير جريس

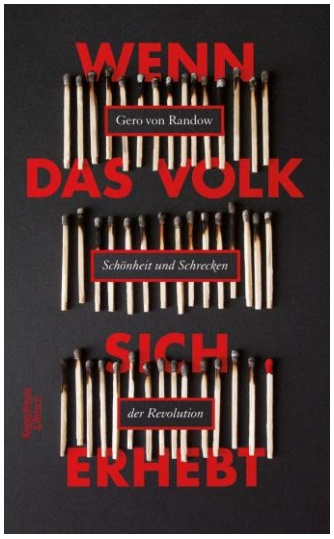

© 2017 Litrix.de

(من صفحة 9 – 13)

مقدمة

قبل مئة عام، في عام 1917، انتصرت ثورة أكتوبر الروسية.

الثورة! كلمة كبيرة لم تفقد جاذبيتها بعد، كما أنها من أكثر المفاهيم المستخدمة في الأدبيات السياسية. ليس هذا فحسب، لقد اعتبرها مرشح الرئاسة الأمريكية الكلمة المفتاحية في حملته الانتخابية في صيف 2016. فعلَ ذلك بكل جدية السناتور الأمريكي برني ساندرس، البالغ من العمر 75 عاما، وسط احتفاء الشبان به.

على خلاف كلمات مثل "القيصر" أو "البروليتاريا" فإن كلمة "الثورة" لا تشير في اتجاه الماضي وحده، بل إلى المستقبل أيضا، وتحديدا إلى مستقبل مجهول، تعصف به أوقات صاخبة ربما.

هل هذا إذن تفاؤل أم تشاؤم؟

هذه واقعية. كم من مرة أعلنوا موت الثورة، غير أن ذلك كان تأكيدا على أنها ما زالت تحيا.

الثورات أحداث سامية، تخرج خلالها جماهير الشعب إلى الشوارع، وتملأ الميادين، وتقتحم المباني، وتُسقط الحكام، وتصنع التاريخ. ليس هذا تعريفا للثورة، هذا مجرد وصف، ولكنه يشير إلى ملمح أساسي لها: الثورات أحداث تلهب المشاعر (ولهذا فإن هذا الكتاب يخاطب المشاعر أيضا). الجماهير الثائرة تشعر بالكراهية والحب في آن واحد. وكلما زادت المقاومة التي تواجه الثورة، شعر الثائرون بالكراهية والحب بشكل أعمق. الثورات لا تحركها الأفكار فحسب، بل الأجساد أيضا، ولهذا فإنها، بل لا بد أن تكون مثيرة للمشاعر. إنها شيء ملموس، وليس مجردا. "النظم والأفكار لا تخرج إلى الشارع"، هكذا كان

© 2017 Litrix.de

الثوار في باريس في مايو 1968 يرددون، كما كانوا يقولون أيضا: "الثورات قد تكون أعيادا، وقد لا تكون."

الثورة الجارفة حدث يثير المشاعر، غير أن فشلها أيضا كذلك. هذا هو حال "الربيع العربي". إنني متأكد من أن حالات الفرحة العارمة سوف يتلوها اكتئاب عميق. في البداية الحماسة العارمة، ثم الإحباط والندم. شعوران مختلفان كل الاختلاف، ليس فقط بسبب طبيعتهما الإيجابية والسلبية، ولكن لأن الحماسة هي دائما شعور أكثر تكثيفا وأقصر عمرا من الشعور بالإحباط. الحماسة تجرفك معها، أما الإحباط فهو يجذبك إلى أسفل.

هناك كلمات أضحت مشهورة قالها جيورج فيلهلم فريدريش هيجل عن تأثير الثورة الفرنسية في عام 1789 على مشاعر المعاصرين: "لقد ساد ذلك العصر مشاعر سامية، وملأت العالم حماسة الروح، وكأن الصلح بين الإلهي والدنيوي قد حدث أخيرا".[1] بعد ذلك هبط المتحمسون ثانية على أرض الواقع.

هذه الخاصية العاطفية للثورات لها عواقب جسيمة: الثورات تبقى حية. روايات وقصائد وأغان وصور وأفلام تنقل هذه المشاعر والأحاسيس والخبرات عبر أجيال؛ ليس هذا فحسب، بل إن هذه الخبرات الفياضة بالمشاعر تتكرر، ويتم تحديثها، وهكذا يعايشها الإنسان مرة أخرى.

الثورات خبرات جماعية. عمل تحريري جماعي، ولكنها أيضا – وللأسف – غالبا ما تكون أعمالا وحشية تُرتكب بشكل جماعي.

جمال الثورة: هي لحظة التحرير الدرامية. في كتابه الصادر عام 1969 "محاولة تحرير الإنسان" كتب الفيلسوف الاجتماعي هربرت ماركوزه – الأب الروحي للطلاب المتمردين – أن الثورة "لا تصبح ممكنة إلا عندما يقوم أحرار (أو بالأحرى الأفراد الذين على وشك أن يحرروا أنفسهم) بتشكيل حياتهم بشكل تضامني، وبناء عالم يفقد فيه الصراع حول الوجود ملامحه القبيحة والعدوانية".[2]

يحدث عندئذ تحول شامل للمشاعر. بدلا من مشاعر اليأس التي يشعر بها الناس بشكل فردي، تحل خبرة القوة الجماعية: "تعرف كل الجماعات المناضلة تلك اللحظة من الانفعال الكارثي، الشعور المكثف بالسعادة، حتى لو كان شعورا زائلا، الذي يعقب اكتشاف قوة الذات، تلك القوة التي لم يكن يشعر بها الإنسان من قبل"، مثلما كتب فيلسوف اجتماعي آخر، وهو فريريك لوردون، أحد قادة الحركة الفرنسية الاحتجاجية „nuit debout" "ليلة وقوف"[3].

ما أجمل التحرر، وما أفظع العنف. في طرفة عين يمكن للحشود الثائرة أن تتحول إلى جماعة من الجناة القادرة على الإتيان بأفعال جمعية لا يمكن أن يقترفها الفرد أبدا. وجود الآخرين الغاضبين يخفض من الجهد المبذول لتبرير أعمال العنف.

إذا أصغينا جيدا إلى أغاني الثورة التي ما زال يرددها الناس حتى اليوم، لوجدنا أن عددا كبيرا منها يتغني بالانتقام والإعدام دون محاكمة: "فلنعلق الأرستقراطيين على أعمدة المصابيح"، تقول أغنية Ça ira من زمن الثورة الفرنسية، كما لحن هانز أيزلر نشيد الحركة العمالية "حي فدينغ الأحمر" الذي كتب كلماته الشاعر إيريش فاينرت، وفيه يقول:

"نحن هنا لا نشكو، بل نندفع،

فشعارنا هو الصراع الطبقي

على وقع اللحن الدموي!"

على وقع اللحن الدموي إذن.

فلنعبر عن الأمر بكلمات أخرى: سيكون العالم أسعد، إذا لم يكن هناك داع لقيام الثورات. لكن الظلم صارخ.

لقد أصبح الظلم أكثر وضوحا من أي وقت مضى، ليس هذا فحسب، بل لقد أصبح بالإمكان تصوير الظلم بشكل يهز الوجدان هزا. في البداية جاءت الصحافة المطبوعة، ثم الراديو، والتلفزيون، واليوم يطغى الإنترنت على صورة العالم: وسائل الإعلام تزداد "سخونة"، إذا استخدمنا تعبير المنظِّر الإعلامي الكندي مارشال ماكلوهان (1911 – 1980)، فهي تلعب على المشاعر بشكل أكبر من الماضي، كما أنها تزداد سرعة وإثارة، وتغلغلا في داخلنا.

تناضل الثورات من أجل الأجساد ومن أجل اللغة. إنها أحداث تواصلية. يقوم الحكام والمتمردون بتنظيم أنفسهم، ويتواعدون، وينشرون معلومات عملية ونداءات أو أفكارا، ويحاولون تعطيل قنوات الاتصال التي يستخدمها الطرف الآخر. ولها فإن من الأهداف التكتيكية المعروفة للثورات هو السيطرة على محطات الإذاعة والتلفزيون. هذا الملمح الجوهري الإعلامي للثورة يزداد راديكالية مع توافر الإنترنت المحمول، وكما أثبت ما يُسمى بالربيع العربي الذي أخفق في كل مكان تقريبا (حتى إشعار آخر). ولكن يبقى صحيحا أن التكنولوجيا الرقمية – وبسبب طبيعتها العالمية ومرونتها وسمتها الجماهيرية – تفيد في النهاية الشعوب المنتفضة أكثر مما تفيد قامعيها.

سوف نرى ذلك مرات ومرات. هناك مجموعتان من الصفائح التكتونية التي تحتك ببعضها البعض في قاع عالمنا، الأولى اسمها الإمكانية، والثانية تدعى الواقع، وهو ما يولد توترا أرضيا. كيف وبأي شكل سوف يُفرغ هذا التوتر؟

على كل حال فإن عهد الانتفاضات والتمرد والاحتجاجات والثورات لم ينقضِ. ورغم أن هذا الكتاب يلقي نظرات كثيرة على الثورات الماضية، فإنه يوضح لنا أيضا قدرات الهزات المستقبلية.

(ص 46 – 49)

الحزن الجزائري

يمر الثوار المرة تلو الأخرى بخبرة مريرة، وهي أن جهودهم واستعدادهم للتضحية يؤدي إلى استبدال منتفعين جدد بالمنتفعين القدامي. المنتفعون الجدد في الجزائر هم بعض قادة الثورة في الماضي الذين يوفرون اليوم حياة باذخة لعائلاتهم من موارد البترول، في حين يبقي الشعب فقيرا.

عندما أسافر إلى الجزائر العاصمة، أحب الذهاب إلى الحي الشعبي "باب الواد"، حيث يتقابل أبناء الشعب على اختلافهم. وهؤلاء لم يعد لديهم سوى السخرية عندما يسمعون كلمات مثل "مناضل من أجل الحرية" أو "الثورة".

"باب الواد" حي له تاريخ. في عهد الاحتلال الفرنسي كان سكان الحي أوروبيين. وفي قلب الحي، في ساحة "الساعات الثلاث" الشهيرة، تحصن في مارس 1962 الفرنسيون المسلحون الذين قاوموا قرار شارل ديجول بإنهاء الاستعمار الفرنسي في الجزائر. كانت المنظمة الإرهابية التي كونها الضباط الفرنسيون، منظمة OAS، هي الجوهر الصلب للمجموعة المعترضة على قرار ديجول، وكانت تلك المنظمة هي المسؤولة عن القيام بعمليات قتل في باريس. طوال أسبوع اشتعلت حرب شوارع مع الجيش الفرنسي في "باب الواد".

في السنوات التالية اختفى الأوربيون، وحل الجزائريون محلهم. وكما كتب فرانتس فانون: سكن الآن هؤلاء، حيثما استقر أولئك. ومع الجزائريين حلّ الفقر. وسرعان ما حلّ الإحباط بشأن نهاية الثورة.

بعد الانتصار على فرنسا، استولى على السلطة رجال الجيش الذين عادوا إلى الجزائر من الخارج. وهكذا تحولت جبهة التحرير الوطني FLN إلى حزب موحد كان بمثابة الأساس السياسي للسلطة التي مارسها بشكل رئيسي جنرالات الجيش، وتحديدا أولئك الذين ترأسوا جهاز المخابرات واسع النفوذ. وما زال مركز السلطة حتى اليوم في يد هيئة غير رسمية تضم ضباطا حاليين ومتقاعدين. تتزين هذه الهيئة بديكور جمهوري، مثل البرلمان المشكوك في شرعيته نظرا إلى عمليات شراء الأصوات وتزوير الانتخابات.

من يريد أن يصبح شيئا في الجزائر اليوم، عليه أن يجتهد، ولكن ليس في التعليم، بل لكي تكون له في المقام الأول علاقات نافعة. إن أبناء أو أرامل المناضلين، أو المجاهدين من أجل الحرية، يمثلون وضعا اجتماعيا معترفا به في الجزائر. هناك طبقة كاملة من المحاربين الذين أسسوا جمعيات ويتمتعون بالتالي بصلاحيات معينة في الدولة؛ مَن ينتمي إلى طبقة النبلاء هذه، ولو بصلة بعيدة، يدفع ضرائب

© 2017 Litrix.de

وإيجارا أقل، ويحصل على الوظائف المغرية. الموقع الإليكتروني الساخر "المنشار" كتب ذات مرة مازحا إن وزارة المجاهدين – وهي وزارة موجودة بالفعل – قد أسست "لبنات أخ وأبناء أخت جيران المجاهدين منظمةً تضم في عضويتها أصدقاء فترة شبابهم".

خلال الاحتجاجات الشعبية ضد الديكتاتورية العسكرية في عام 1988 أطلق الجيش الجزائري الرصاص على المتظاهرين الذين تجمعوا في باب الواد. وبعد الانقلاب العسكري في عام 1992 الذي مثل رد فعل قادة الجيش على نجاح الإسلاميين في الانتخابات، أصبح الحي مركزا للجهادية الإسلاموية، وإحدى أكثر ساحات الحرب الأهلية بشاعة، تلك الحرب التي استمرت عشر سنوات. ومرة أخرى، في عام 2011، أي عام الربيع العربي، هاجم سكان حي باب الواد رجال الشرطة بالحجارة وزجاجات المولوتوف.

آنذاك تقابلت مع علي هارون، أحد مناضلي الثورة القدامى (من مواليد 1927). انضم هارون في عمر السابعة والعشرين إلى جبهة التحرير الوطني، وناضل تحت الأرض، ثم أُرسل لفترة من الوقت إلى أوروبا حيث قام بجمع المال من أجل الثورة – وهو ما حدث في ألمانيا أيضا، على نحو غير مشروع، وبمساعدة الحزب الاشتراكي الديمقراطي. بعد انتصار الثورة حاول هارون مع آخرين منعَ قيام دولة استبدادية يحكم فيها حزب واحد، ويقودها حكام أوتوقراطيون. ولكن دون جدوى. وّلدَ الربيع العربي الآمال من جديد لدى المناضل القديم. ولكن عندما يتحدث المرء اليوم مع علي هارون ذي الشعر الأبيض عن هذا الموضوع، فإنه يشيح بيده متعبا. حالة جزائرية من الحزن والإحباط. أسأله: كيف يحدث أن يتحول المناضل من أجل الحرية بالأمس إلى شخص لا يهمه بعد الثورة سوى الامتيازات المربحة والسلطة؟ يزمّ هارون شفتيه: هذه هي إجابته. وبماذا يجيب على سؤالي الساذج؟

في الاتحاد السوفييتي كانوا يتبادلون هذه النكتة: يستقبل ليونيد بريجنيف اتصالا تليفونيا من أمه التي تسأله عما إذا كانت أحواله جيدة. نعم، يجيب بريجينف، لدي بيت جميل وكبير، وطباخ خصوصي، وعشر سيارات رولز رويس. عندئذ تجيبه الأم: "هذا جميل. ولكن كن حريصا عندما يأتي الشيوعيون."

أو فلنأخذ كمثال بطل الفدائيين في يوغسلافيا، الشيوعي جوزيف بروز تيتو، الذي قاد البلاد إلى التحرر من الفاشيين، والذي وعد شعبه بالثورة الاشتراكية. في خريف 1944 استولى تيتو على القصور الملكية القديمة، وأمر بتجديدها، ثم انتقل هو إلى السكنى فيها. في أحد أفنية القصور أمر بإقامة "إسطبل" للخيل لكي يتذكر الحصان الذي كان يمتطيه خلال الحرب. وسرعان ما أضحى تيتو ورفاقه يعيشون على نحو أكثر بذخا من حاشية الملك سابقا. في الصيف كانوا يذهبون إلى الفيلات المقامة على جزيرة "بيريوني" بجوار شبه جزيرة إستريا، بعد أن تم زراعة الأشجار في الجزيرة، وتجديد الشواطئ، بل وإقامة حديقة حيوان جديدة. الآلاف كانوا يعملون نهارا وليلا على خدمة الحاكم الجديد وحاشيته وضيوفه.[4]

دائما نفس الحكاية. دائما يحدث ما وصفه الكاتب الفوضوي ماكس شتيرنر في عام 1844 بالكلمات التالية: دائما ما يصل سيد جديد بمفرده ليحل مكان السيد القديم؛ أما الانقلاب فليس سوى تعلية للبناء القديم."[5]

(ص 56 – ص 62)

تعريف مؤقت للثورة

فلننظر إلى الحصيلة الأولية التي توصلنا إليها حتى الآن.

الثورات حوادث جارفة، تحرك الحشود، وتدمر نماذج سياسية ومجتمعية وتستبدلها بأخرى، وبهذا تمثل علامات فارقة في التاريخ. الثورة تعبير عن حقائق، لكنها أيضا لحظة مفعمة بالأكاذيب. إنها لحظة غضب وعنف، لحظة جمال ورعب. تنجب الثورات قادة، كما تنجب طغاة. الواقع يحل محل الحلم الذي لا يتوارى كلية، بل يظل يطل برأسه كحلم محبط. هذا ما صادفناه حتى الآن.

ولكن، كل هذه مجرد مقاربات بالطبع، وخلال الكتاب سنصل إلى مقاربات أخرى، ما صادفناه سوف نتعمق فيه؛ ولكن السؤال المطروح هو: عن أي شيء نبحث؟ هل نبحث فعلا عن نظرية موحدة يمكن تطبيقها على كل الثورات؟ إذن لا بد من أن نقول: لا وجود لنظرية كهذه، بل هي نظرية مستحيلة.

لهذا، حسنا فعلَ الفيلسوف فلوريان جروسر عندما أطلق على كتابه حول هذا الموضوع عنوان ""نظريات الثورة"، وليس "نظرية الثورة".[6] يقول جروسر في كتابه: "أحد الملامح الرئيسية للمفاهيم والنظريات الخاصة بالثورات السياسية هو أنها غير متجانسة. أما كرين برنتون فيبدأ عمله الكلاسيكي المعنون بـ "تشريح الثورة"، والصادر عام 1936، بهذه الجملة الجميلة: "الثورة هي إحدى الكلمات المطاطية."[7]

ربما يساعدنا هنا مفهوم "التشابه العائلي" الذي استخدمه الفيلسوف لودفيج فتجنشتاين: هناك مفاهيم – كمثال عليها يذكر فيتجنشتاين مفهوم "اللعب" – تصف أشياء مرتبطة مع بعضها البعض، دون أن تشبه تلك القرابة شجرة عائلة، أي دون أن نستطيع أن نحدد هذه القرابة بشكل صارم.[8] وهكذا، مثل اللعب، يمكن أن نحيط بظاهرة الثورة المتعددة الأشكال عبر نظريات متنافسة، بدلا من البحث عن النموذج الكبير الشامل.

وربما لا تكون تلك خصوصية مميزة لهذه الظاهرة، بل هي إحدى سمات هذا الشيء الذي نطلق عليه "التاريخ". في "التاريخ" – وهذا ما أشار إليه الفيلسوف أشعياء برلين (الذي عايش طفلا الثورة الروسية في سان بطرسبرج) – تتفاعل معا عدة تفاصيل متباينة: مجموعات بشرية صغيرة وكبيرة، وعوامل اقتصادية وجغرافية وسياسية وثقافية ودينية وتكنولوجية وروحية. يحدث هذا على نحو يمنع التصنيف الصارم أو نشأة نماذج معينة تسمح لنا بتنبؤات ولو على شكل تقريبي. بالإضافة إلى ذلك – يقول الفيلسوف برلين – فإن المواقف التاريخية لا تتشابه إلا قليلا، ولذلك لا تكاد توجد تشابهات أساسية كبيرة بين الأحداث

التاريخية تمكننا من استخلاص نموذج بعينه.[9] لا نريد أن نكون متشائمين إلى هذا الحد في منهجنا، ولكننا نريد أن نصغي إلى تحذير الفيلسوف برلين، وألا نخضع كل ما يحدث لنظرية شاملة. إذا اتبعنا نهجا ماركسيا فسيكون الأمر بالطبع مختلفا: فالتاريخ – حسب الماركسية – ليس تفاعلا بين عوامل مختلفة، بل إن تلك العوامل ليست سوى تجليات لشيء متكامل له جوهر ولب. ورثت الشيوعية هذا المفهوم التاريخي الشمولي والمادي من سبينوزا وهيجل، وهو برنامج جسور، لكنه بالطبع لا يأخذ في الحسبان فوضى التاريخ العارمة.

لا بد إذن من التعددية في النماذج. وهناك ميزة في التفكير على هذا النحو المرن، ألا وهي قدرتنا على التحدث في نَفَس واحد عن الثورة الإنجليزية والأمريكية والروسية والفرنسية، رغم اختلافها عن بعضها البعض اختلافا جذريا؛ ويكفي أن كرين برنيتون قد استند في كتابه "تشريح الثورة" تحديدا على المقارنة بين تلك الثورات المختلفة.

ولكن، بدلا من توسيع مفهوم الثورة على هذا النحو، علينا، على الأقل في هذا الموضع، أن نؤكد على سمة رئيسية، ألا وأنه لا يمكن استخدام "كلمة "ثوري" إلا بالنسبة للثورات التي تهدف إلى الحرية".[10] هذا ما كتبه العالم في الرياضيات، الماركيز ماري جان أنطوان نيقولا كاريتا، الماركيز دي كوندورسيه. كان الماركيز دي كوندورسيه أحد المشاركين في الثورة الفرنسية عام 1789، وكمفكر ليبرالي كان وضعه صعبا في مواجهة أتباع روبيسبيير، وقد توفي في النهاية مسموما، ولا يعرف أحد على وجه اليقين ما إذا كان ذلك انتحارا. يبدو مطلب الماركيز متناقضا من الناحية المنطقية، ولكننا نريد أن نتبنى هنا جوهر عبارته. فالعبارة تسمح عمليا باستبعاد ظواهر معينة، رغم اشتراكها في بعض التشابهات مع الحركات الثورية. ونعني هنا على سبيل المثال الجهادية الإسلاموية والفاشية.

الحركات الجهادية، مثل "الدولة الإسلامية" و"القاعدة"، تذكرنا – رغم ما بينها من اختلافات – بتيارات ثورية، لأنها هي أيضا تكافح نُخَبا فاسدة، وتعد الشعب بمملكة آتية يسود فيها الشرف والفضيلة والعدالة الاجتماعية.

الإيديولوجية التي تتبناها تلك الحركات هي التطهير المطلق. كثيرا ما يدعون أن "الدولة الإسلامية" تطمح إلى العودة إلى العصور الوسطى، ولكننا إذا عقدنا مقارنة مع التاريخ الأوروبي، فسنجد أن علينا أن نقارنها بالأحرى مع منتصف القرن السادس عشر، أي مع الحكم المرعب لرسول الأخلاق والمصلح الراديكالي يوهانيس كالفن في جنيف، الذي لم يكن أقل وحشية من الحركات الجهادية.

الجهاديون أيضا لهم حلفاء، وممولون، ومناضلون في الخارج، تماما كالثوريين. إن قوات الجهاديين، في جزء ليس بضئيل، قوات دولية، كما أن الجهادية تتمتع في عديد من الدول الفقيرة بتعاطف الشعب. إنني أتذكر هنا فترة إقامتي في مدينة دار السلام في تنزانيا. كان ذلك في نهاية عام 2001، وهناك رأيت الشباب يسير في الطرقات مرتديا "تيشرتات" تمجد الهجمة الإرهابية على مركز التجارة العالمي. واليوم

ينضم إلى "الدولة الإسلامية" الشبان الذين تطرفوا خلال "الربيع العربي"؛ في حين بدأ آخرون يسيرون على طريق الجهاد مع حركة التمرد التي اندلعت في العراق في زمن رئيس الوزراء السابق نوري المالكي احتجاجا على التمييز المُمَارس ضد السنة، أو اعتراضا على نظام الأسد القمعي والمغتصِب في سوريا.

هناك إذن أسباب للنظر إلى الجهادية بالمفهوم الواسع كحركة ثورية. غير أن الجهادية ينقصها شيء واحد: ليست الحرية هي هدف الجهادية أبدا، أو ربما هي تنشد حرية العقيدة للسنة المتطرفين فحسب. الجهادية مذهب عبودية، وهي تعبير عن البطريركية في أقصى تجلياتها.

سنحمِّل مفهوم الثورة أكثر مما يحتمل إذا أردنا أن نجعله يشمل الفاشية والنازية أيضا. صحيح أن هناك مؤرخين يتحدثون في هذا السياق عن الثورة، كما أن المنظمات النازية بالأمس واليوم أيضا تستخدم مفهوم الثورة لوصف نفسها. غير أن سبستيان هافنر أنهى هذا النقاش مبكرا، وتحديدا في عام 1939، عندما وصف انتصار النازيين بالكلمات التالية: "ربما تبدو كلمة "المتاريس" قديمة، ولكن وجود أي شكل من التلقائية والانتفاضة والتمرد يبدو أساسيا بالنسبة للثورة. إن أحداث مارس 1933 لم تتضمن أي شيء من كل ذلك. لقد كانت تلك الأحداث مزيجا من عناصر من أغرب ما يكون، ولكن غاب تماما أي فعل شجاع أو جسور أو مقدام من أي جانب من الجوانب."[11] ويقول في مكان آخر: "كل ثورة لدى الشعوب الأخرى، أيا كان ما صاحبها من دم مسفوك وضعف آني، أسفرت في النهاية عن زيادة هائلة للطاقات الأخلاقية لدى كلا الجانبين المتصارعين ... أما الألمان اليوم فإنهم لا يجدون في ذلك الموضع – حيث يتفجر ينبوع القوة والطاقة – غير العار والجبن والضعف."[12]

إذا نظرنا إلى نازيي اليوم، فقد نجد خطابهم يبدو ثوريا، أما أفعالهم فهي تنحصر – على سبيل المثال – في إشعال النيران في بيوت الضعفاء والخائفين، أو إطلاق الرصاص على بائع خضار برئ. النازيون والفاشيون – مثلهم في ذلك مثل أتباع "الدولة الإسلامية" – لا يناضلون إلا من أجل حرية أشباههم، أي أن المعيار الذي استخدمه الماركيز دي كوندورسيه لا ينطبق عليهم بأي حال من الأحوال.

وأخيرا، ثمة ملاحظة حول "الثورة المحافظة". إن أتباع هذه الثورة ليسوا ببساطة من الثورة المضادة. إن منظرين مثل أوسفالد شبنجلر وإرنست يونجر وكارل شميت لم يعتبروا الثورة هي العدو، بل "الوضع القائم"؛ لكن المحصلة الذهنية لنظرياتهم فاشية، ونعني نهضة عالم قومي مُتخيل من الماضي التليد. هذا العالم لا يعني زيادة في الحرية بل في الأصالة، وهو ليس توسعا في التعددية، بل في الهوية. إذا أردنا أن نطلق على ذلك صفة "ثوري"، فإن هذا سيجعل الكلمة باهتة وضبابية.

هؤلاء الأشخاص ليسوا في الحقيقة محافظين. فالشخص المحافظ لا يريد التخلي عن الوضع السائد، بل الحفاظ على ما يعتبره أفضل ما فيه (ولهذا ينظر إلى الثورة نظرة رعب بالطبع).

الرائد الفكري للمذهب المحافظ إدموند بورك – الذي عاصر الثورة الفرنسية وعاداها – وصف مذهبه بالكلمات التالية في المانيفستو الذي كتبه بعنوان "تأملات حول الثورة الفرنسية": بدلا من أن نلقي بأحكامنا

المسبقة القديمة، فإننا نحتفظ بفخر بقدر محترم منها لكي نلطخ رؤوسنا بمزيد من العار، إننا نحتفظ بها بفخر لأنها – تحديدا – أحكام مسبقة: وكلما طال عمرها، وكلما كانت عمومية، زاد افتخارنا بها. إننا نخشى أن نجعل كل فرد يحيا على رصيده من العقلانية، لأننا نشك في أن ذلك الرصيد ضئيل، ونعتقد أنه يجدر بالأفراد أن يستخدموا الرصيد العام ورأس المال الذي جمعته الأمم عبر العصور."[13] لهذا حذر بورك من تحويل إنجلترا إلى جمهورية برلمانية على غرار الجمهورية الفرنسية.

لقد قمنا بتحديد مفهوم الثورة بعض الشيء. لكنه لم يمتلئ بعد بالحياة. فالثورة – على سبيل المثال – نمط للعيش أيضا، وهذا تحديدا ما جذبني في شبابي المبكر وظل يجذبني فترة طويلة. وحتى اليوم لم أتحرر بعد من ذلك السحر. ولدراسة نمط الحياة هذا – ولنقده – يجدر بالمرء أن يتأمل بعض الثوار عن قرب.

(ص 254 – 260)

13

هل كان الأمر يستحق؟

الهجوم ثم الدفاع: هذان هما المرحلتان الدمويتان للثورة، يعقبهما مرحلة الاستيلاء على السلطة. فلنحاول أن نتخيل كم المعاناة التي تتولد عن الثورة: مَن مِنا لن يصاب بالرعب؟ ما حجم محيط الدم المسفوك؟ كم ستكون الصرخة مدوية، إذا سمعنا في آن واحد كافة التنهدات والآهات والصرخات التي تصدر عن كل المصابين والمعذبين والمتحضرين؟

يختلف المؤرخون حول عدد الملايين الذين راحوا ضحايا ثورات القرن العشرين، وتحديدا ضحايا الشيوعية الروسية والصينية. المؤرخ الحذر إيريك هوبسباوم كتب عن الستالينية قائلا إن عدد الذين راحوا ضحية الستالينية بشكل مباشر أو غير مباشر يُقدر بعشرات الملايين.[14] ويتفق المؤرخون على أن 20 مليون إنسان على الأقل قد لاقوا حتفهم خلال ثورة تايبينج الصينية التي كانت حربا أهلية ثورية اجتماعية بكل معنى الكلمة. ويستمر التاريخ الثوري الدموي في القرن الحادي والعشرين، سواء في ليبيا أو مصر أو سوريا – دون أن ننسى الحرب الأهلية المضادة للثورة التي تشنها روسيا على شرق أوكرانيا، والتي تعد نتيجة متأخرة للثورة البرتقالية.

هل الأمر يستحق كل هذه المعاناة؟

من الممكن أن نرى الأمر بطريقة معاكسة. تحت الحكم الأرستقراطي في فرنسا (ما يسمى بـ"النظام القديم") كان الملايين من الفرنسيين يتضورون جوعا. مَن لا يُسقِط الطغاة، فإنه يسمح باستمرار العنف في أقبية التعذيب التي تعني بالنسبة لكل ضحية معاناة أبدية لا تنتهي.

غير أن السؤال يرتكز على افتراض خاطئ. الثورات لا تحدث لأن فاعلاً تاريخياً معيناً يقيم المخاطر، وبدم بارد يقارن بين أرقام الضحايا، ثم يصدر بعد عملية حساب طويلة قرارا عقلانيا. الثورات أحداث، وفيها يتصرف البشر على نحو ما. هذا هو كل شيء. وكما رأينا، قد يعتقد الثوار أنهم يمسكون الخيوط في أيديهم، ولكنهم في أفضل الأحيان يعتلون موجة إلى أن تدفنهم تحتها المياه الهادرة.

فلنطرح سؤالا أفضل: ما نتيجة الثورة؟

الإجابة: النتيجة ليست وضعا ثابتا، بل عملية متفاعلة. تفتح الثورة بقوة أحد الأبواب، وخلفه يبدأ طريق جديد. يهجر الناس النهج القديم، ويشرعون في السير على نهج جديد. حتى هنا ليس هناك تقييم لما حدث، ولا يمكن أن نتحدث عن تقدم أو ما يشبه ذلك.

© 2017 Litrix.de

يمكننا، مرة أخرى، دراسة حالة الثورة الإنجليزية التي تحدثنا عنها من قبل. لقد سارت على طريق طويل، وشقت أيضا طريقا طويلا. التقطت الثورة خيط الحرب الأهلية في القرن الثالث عشر والتي أسفرت عام 1215 عن "الميثاق الأعظم" (الماجنا كارتا)، وهي الوثيقة التي رسخت، أولا، حقوق طبقة النبلاء وقيّدت حقوق الملك، كما صاغت، ثانيا، الحقوق الأساسية، ومن أهمها ما ورد في الفصل التاسع والثلاثين: "ليس لأحد أن يهاجم رجلا حرا أو أن يلقي به في السجن، ومن غير المسموح أن تُسلب منه الأرض الممنوحة له، أو أن يُطرد خارج البلاد، أو أن يُعاقب على أي نحو آخر. ونحن لن نهاجمه ولن نأمر بمهاجمته، إلا بناء على حكم قانوني صادر من طبقة النبلاء ووفقا لقانون البلاد."[15] وبذلك حددت "الماجنا كارتا" بداية الطريق الذي أفضى إلى الدستور ودولة القانون في إنجلترا. وفي القرون التالية أدى الصراع بين النبلاء والأمراء والبلاط الملكي حول اقتسام السلطة، وهكذا تكون البرلمان الذي تتطور تدريجيا من هيئة ملكية إلى مؤسسة مستقلة.

ولكن في عام 1603 صعدت عائلة ستيوارت إلى العرش الملكي، وكان ياكوب الأول يريد أن يتراجع تماما عما تم الوصول إليه: بالنسبة له كان البرلمان مجرد "مجلس الملك، لا أكثر".[16] لكن هذا التوجه لقي معارضة من طبقة "الجنتري" Gentry التي أصبحت أكثر ثقة في نفسها. ويصف هذا المصطلح النبلاء من الطبقة الدنيا، وكذلك البورجوازيين وممارسي المهن الحرة. احتدم الصراع تدريجيا طوال نحو ثلاثين عاما إلى أشعلت مناسبة دينية سياسية فتيلَ الصدام. بعدها حدث كل شيء بسرعة، وهكذا تسلح الملك لمواجهة البرلمان الذي قام بدوره بتجهيز جيش خاص به، ومن ثم بدأت مرحلة جديدة معقدة حقا، وفي نهايتها ألقى الجيش الثوري القبض على الملك الذي حوكم بتهمة الخيانة العظمى، ثم أُعدم في الثلاثين من يناير عام 1649.

بعد مرور 11 عاما خطا الإنجليز، بدايةً، – وكما صورنا من قبل – خطوة إلى الوراء: في عام 1660 انتصرت القوى الرجعية، فعاد الملك ومجلس اللوردات – غير أن العالم كان قد تغير؛ ليس فقط لأن الملك الآن أصبح يحصل على سلطته من البرلمان، بل أيضا لأن السياسة لم تعد أمرا يُمارس سراً، بل أمرا علنيا. لقد صيغت قواعد قانونية جديدة أصبحت تحكم الصراع حول السلطة بين الملك والنبلاء والطبقات البورجوازية، وفي القلب من تلك القواعد كان البرلمان. هذا ما حددته "وثيقة الحقوق" الصادرة عام 1689 والتي حددت أيضا أن الملكية تستمد شرعيتها من النظام البرلماني. لم يكن معنى هذا أن إنجلترا أصبحت ديمقراطية، على الأقل ليس بالمعنى الحديث. لقد ظلت إنجلترا حتى عام 1910 "دولة يسيطر عليها النبلاء سيطرة كبيرة"، مثلما يقول المؤرخ الدستوري هانز فنسكه.[17] وكان عدد الذين لديهم حق الانتخاب لا يتجاوز 15,9 في المئة من عدد سكان. تغير ذلك في عام 1911 بصدور قانون البرلمان، ولكن حتى بعد ذلك لم يكن الانتخاب مسموحا لكل مواطن. أما النساء فلم يحصلن على حق الانتخاب إلا في عام 1928.

عن أي شيء إذن تمخضت الثورة الإنجليزية؟ لم تتمخض عن وضع ثابت، بل عن عملية متفاعلة.

أما الثورة الأمريكية فقد اختلفت اختلافا جذريا عن الثورة الإنجليزية: كانت الثورة إلى حد ما توثيقا لتطور كان قد اكتمل مع الاستقلال الأمريكي، ونعني نشوء مجتمع ينمو ويتوسع، ويستغل الفرص الجديدة المتاحة (أمام البيض). النتيجة المهمة فعلا للثورة الأمريكية هي الدولة الدستورية التي أنجبتها، فهذه الدولة قامت بتعريف السلطة السياسية على نحو جديد: أولا، هذه الدولة تستمد شرعيتها من أسفل وليس من أعلى؛ ثانيا، هي ملتزمة بقوانين منبثقة عن حقوق الإنسان العامة؛ ثالثا، السلطة فيها موزعة على مؤسسات تراقب بعضها بعضا. كانت هناك مقدمات لكل هذا، غير أن الدستور الأمريكي لعام 1787 كان يتضمن كل تلك العوامل في صورتها الخالصة تقريبا، وهو ما أتاح تطورا سياسيا جديدا من الناحية التاريخية، أي الديمقراطية الرأسمالية، بكل مزاياها ومساوئها.

وصل إشعاع الثورة الأمريكية اللا استعمارية على الفور إلى بلد آخر كانت الثورة تشق طريقها فيه أيضا: فرنسا. وبالمناسبة، لقد كان المفكرون الأمريكيون والفرنسيون يعرفون بعضهم بعضا، وكانوا يلتقون في "مقهى بروكوب"، وهو مطعم في الحي السادس ما زال موجودا حتى اليوم. هناك كان بنيامين فرانكلين يحب أن يتناول طعامه، وهناك كتب مسودة الدستور الأمريكي أيضا. توماس جفرسون، خليفة فرانكلين، كان يتردد أيضا على هذا المطعم عندما كان سفيرا لبلاده في باريس، وكان يتقابل هناك مع صديقه، جنرال الثورة لافاييت، الذي اشتهر كمشارك في حرب الاستقلال الأمريكية. في عام الثورة الفرنسية، عام 1789، جلس الاثنان في "بروكوب" ليكتبا إعلانا عن الحقوق والحريات. وما زال المطعم يزخر حتى اليوم بالرموز والتذكارات التي تشير إلى تاريخ المكان، أي إلى زمن الثورة، حيث تفصل دورات المياه بين "المواطنات" و"المواطنين".

من السهل تحديد حصيلة الثورة الأمريكية من الناحية السياسية الدستورية، ولكن من الصعب فعل ذلك بالنسبة للثورة الفرنسية. لقد احتاجت فرنسا إلى نحو مئة عام بعد انطلاق الثورة في 1789 إلى أن ترسخت ديمقراطية مستقرة في البلاد. أما حق الانتخاب للمرأة فلم يُقر إلا في عام 1945.

في ألمانيا مرّت سبعون سنة بين ثورة مارس عام 1848 ونشوء أول ديمقراطية، أي تأسيس جمهورية فايمر التي لم تستمر على قيد الحياة سوى خمسة عشر عاما، وبعدها ارتمى الألمان في أحضان الاشتراكية القومية (النازية). أما بناء مؤسسات الدولة الديمقراطية في ألمانيا الغربية فقد بدأ بعد ذلك كـ"ثورة من أعلى"، واستهلك قدرا ضخما من الطاقة للتغلب على الصراعات الناشئة، إلى أن أصبح من الممكن القول إن الواقع الدستوري يتطابق إلى حد بعيد مع الدستور. ولم يتحقق هدف ثوار عام 1848 – ونعني نشر الديمقراطية في كل ربوع ألمانيا – إلا بعد عام 1989. أي أن ألمانيا احتاجت إلى 141 عاما لبلوغ هذا الهدف.

من هنا يتجلى أن من العجرفة أن نقول للعرب إن ثورتكم في عام 2011 قد فشلت.

وما نتيجة الثورة المعادية للاستعمار في أمريكا اللاتينية؟

إنها حصيلة مختلطة. الواقع في عديد من الدول هو بالأحرى واقع مظلم. ولكن الثورات الأمريكية اللاتينية تتفق في أنها قادت شعوبها إلى طريق مستقل عن الاستعمار.

لقد غيرت الثورات مسار التاريخ. هذه هي وظيفتها، وهو ما ينطبق أيضا على الثورة الإيرانية عام 1979. لكن نتيجة تلك الثورة كانت مميزة: دولة دينية ذات قاعدة شعبية، توازن بمهارة بين الامتيازات والإصلاحات الاجتماعية، في حين تحارب بوحشية بالغة خصومها العلمانيين من الطبقة الوسطى. إثر الثورة بدأ تطور جديد؛ فدخلت إيران في صراع مع الولايات المتحدة الأمريكية، ثم استطاعت الصمود في حربها الدموية مع عراق صدام حسين، ومنذ ذلك الحين وهي في تنافس مع السعودية لتكون قوة إقليمية – وهو هدف قاد إيران إلى سلوك طرق شاذة – من دعم الإرهاب الموجه ضد إسرائيل وصولا إلى دعم الديكتاتور السوري والسفاح بشار الأسد في حربه. جمهورية إيران الثورية تقف إلى جوار الثورة السورية المضادة: هذه من سخريات التاريخ المرعبة.

ولكن، ربما كان عام 1979 مجرد بداية. لقد تقابلتُ في إيران مع شبان، وخصوصا نساء، يعملون بإصرار مثير للإعجاب على أن تنفتح البلاد وتصبح ليبرالية وديمقراطية. لا يريدون بالتأكيد العودة إلى ديكتاتورية الشاه، لكنهم يريدون أيضا التخلص من نظام الملالي. ومن المؤكد أن تاريخ الثورة الإيرانية لم يصل بعد إلى نهايته.

الهوامش

[1] Georg Wilhelm Friedrich Hegel, Vorlesungen über die Geschichte der Philosophie; in: G.W.F. Hegel, Werke, Bd. 12; Suhrkamp, Frankfurt am Main 1970, S. 529
[2] Herbert Marcuse, Versuch über die Befreiung; Suhrkamp, Frankfurt/M 1969, S. 72
[3] Frédéric Lordon, Les affects de la politique; Seuil, Paris 2016, S.142
[4] Jože Pirjevec, Tito. Die Biografie; Antje Kunstmann Verlag, München 2016, S. 180 ff.
[5] Max Stirner, Der Einzige und sein Eigentum; Verlag Otto Wigand, Leipzig 1845, S. 146
[6] Florian Grosser, Theorien der Revolution; Junius Verlag, Hamburg 2013
[7] Brinton, a. a. O., S. 3: *"Revolution is one of the looser words."*
[8] Ludwig Wittgenstein, Philosophische Untersuchungen; erschienen in: Ders., Werkausgabe, Bd. 1, Suhrkamp 1984, S. 277
[9] Isaiah Berlin, The Concept of Scientific History; in: Isaiah Berlin, Concepts and Categories, Pimlico, London 1999, S. 103 f.
[10] Condorcet, OEuvres; Editions la Bibliotheque Digitale, Paris 2012, Pos. 7730
[11] Sebastian Haffner, Geschichte eines Deutschen. Die Erinnerungen 1914 – 1933; Pantheon, Berg am Laim 2014, S. 122 f.
[12] Ebd., S. 131
[13] Edmund Burke, Reflections on the Revolution in France; Penguin, London 1968, S. 183
[14] Hobsbawm, a.a.O., S. 393
[15] Zit.n. Fenske, a.a.O., S. 55
[16] Ebd., S. 59
[17] Ebd., S. 252

© 2017 Litrix.de